مداخلات لغوية

أبو أوس إبراهيم الشمسان ....

كل عام وأنتم بخير

تفضل أخي (فيصل بن علي المنصور) بإهدائي نسخة من كتابه النفيس (رسالة في مسائل كل عام وأنتم بخير متضمنة مسائل نادرة في النحو والتصريف والبلاغة وأصولهن)، ونجد في صدر الكتاب لمسة برّ في إهداء عمله إلى والده رحمه الله وإلى والدته أطال الله عمرها ثم لمسة وفاء بإهداء الكتاب إلى أستاذه د. حسن بن أحمد العثمان، وليس يعرف الفضل لأهله سوى أهل الفضل. وبين في مقدمة كتابه هدفه من عمله وهو بيان أحكام هذه المسكوكة لمّا رأى كثرة الاختلاف في أمرها عند من يزاولون التصحيح اللغوي، ولأنها كثيرة الاستعمال في مناسبات الناس كثرة قد تدعوهم إلى السؤال عن صحة تركيبها، وبيّن في المدخل أنها تستعمل بالواو وبدونها، وأنّ (كلّ) تأتي مرفوعة أو منصوبة، وبهذا يتحصل أربع صور. والكتاب شرح لهذه الصور، بدأ برفع (كل) من غير واو، وثنى برفعها مع إثبات الواو، واستغرقت الصورتان معظم الكتاب أمّا الصورتان الأخريان فجاءتا في صفحتين متقابلتين، ثم ختم ببيان أي الصور الأربع أبلغ، وهي الصورة الثانية.

وهذه الصورة هي الشائعة عند الناس في مخاطباتهم ومراسلاتهم، ولا أعلم أنّ الصور الأخرى مستعملة فلعلها من اقتراحات المصححين. والمؤلف لم يكتف بشرح هذه الصور ولا بإعرابها بل انتهز الفرصة لمناقشة مسائل نحوية دقيقة يثيرها القول في تراكيب هذه الجملة، ويحمد للباحث أنه يصدر عن معرفة واثقة بعلوم العربية مع نظرة نقدية مؤيدة بالحجج والبراهين.

ونبه المؤلف إلى مذهب اختص به نفسه قد لا يوافقه فيه غيره، فهو يكتب (يحيا) بالألف المشالة، والاسم في بيآتنا المختلفة ينطق نطقين ويكتب كتابين، فهو ينطق بإسكان الحاء كما هو في النطق الفصيح، وهو ينطق أيضًا بتسكين الياء بعد قلب مكانيّ بين فتحتها والحاء، ولعلّ الذين ينطقون كالفصيح التزموا الرسم القديم (يحيى) وهو رسم استعمل لما تؤول ألفه إلى الياء عند التثنية بغض الطرف عن الجذر كما هو الحال في مثل (مصطفى) الذي لامه واو، ولعل الذين ينطقون بتسكين الياء اتخذوا الرسم الآخر (يحيا) لأنهم نقلوه من الفعل (يحيا) وأرادوا أن يكون مختلفًا عن اسم النبي (يحيى). والمؤلف في اختياره أراد أن يتابع القاعدة الفرعية لرسم الألف، وهي قاعدة تراعي التخلص من المتماثلات الخطّية، وهو أمر فصلته في كتاب (الشاذليات). ولعلي أوافق المؤلف في مذهبه هذا وإن اختلف هدفانا، فأنا أريد تعميم كتابة الألف مشالة؛ لأني لا أرى هذه الألف قلبت عن ياء، بل هي نتيجة مطل فتحة العين بعد حذف اللام سواء كانت ياءً أم واوًا، فالفعل (يحيا) وزنه عندي (يفعا).

والكتاب جدير بالقراءة المتأنية، وهو ذو مسائل مغرية بالمناقشة، فلعلي أعود إلى شيء من هذا.

◆ الرياض

لإبداء الرأي حول هذا المقال، أرسل رسالة قصيرة SMS تبدأ برقم الكاتب«٧٩٨٧» ثم أرسلها إلى الكود ٨٢٢٤٤

مساقات

أ.د. عبد الله بن أحمد الفَيفي

في اللغة وثقافة التعليب

-١-

لم تكن اللغة العربيّة محصورة الأثر والتأثّر بالجزيرة العربيّة فقط، كما هو التخيّل النمطيّ القاصر، بل إن علاقاتها موغلة بالتراث المصريّ القديم، وتراث حضارات ما بين الرافدين، بل حضارة اليونان والرومان، كما تُثبت ذلك اللُّقى الأثريّة ومكتشفات الحفريّات «الأركيولجيّة» في الجزيرة، أو حتى الاستقراءات اللغويّة المقارنة. أمّا علاقاتها بالحضارات الجنوبيّة، في اليمن، أو الأفريقيّة الجنوبيّة، بالحبشة مثلاً، أو بجنوب آسيا- غرباً وشرقاً- فقد باتت من البدهيّات لدى الباحثين في اللغة والتاريخ. وقد صاحبت تلك المخاضات تحوّلات في الخطاب الثقافيّ العربيّ وفي لغته؛ إلاّ أن اللغة إبّان تدوينها قد تمّ تعليبها وتجميدها في برّادات المعاجم والشروح، التي صُمّمت وَفق ذهنيّات محدودة الإمكانيّات، ومعارف سطحيّة ضحلة بحياة العرب المعاصرين لأولئك العلماء، فضلاً عن سالف تاريخهم، مع بدائيّة الاستقراء. وخلَف من بعدهم خَلْف سُنّتُهم أنْ لم تَعُد هنالك زيادة لمستزيد، بحسب التصوّر التقليديّ، فكلّ بدعة ضلالة، وكلّ قديم مقدّس، لا يُمسّ، وما علينا إذن سوى أن نَغترف من معين ما قيل ونُقل ورُوي ودُوّن.. وهكذا دواليك إلى يوم القيامة.

-٢-

واستطراداً، فإن ثقافة التعليب هذه ثقافة عربيّة سائدة، تَعَلّق الأمر باللغة أو بغير اللغة. وهي ثقافة تَحُوْل دائماً دون المراجعة، وإعادة النظر، وحريّة القبول والرفض. وليس الأمر قاصراً على تعليب الأفكار فحسب، ولكنّ من ضروراتها تعليب المفكّرين أنفسهم أيضاً. فبكلمة يُصنّف الإنسان، ويُقصَى، ويُلغَى، وهكذاً تفعل ثقافتنا بأبنائها. وتزداد سطوتها لأنها ثقافة قمعيّة، لا ترحم، ومن عاندها في ذلك النهج وَقع بنفسه تحت طائلة التصنيف والإقصاء والإلغاء النهائيّ. لنأخذ مثالاً قريباً على هذا من المفكّر الثقافيّ عبدالله القصيمي. وأزعم أن هذا الرجل قد ظُلم في ثقافتنا العربيّة، وهو ما جعله يعيش منعزلاً لأفكاره، ثم جعله ينفصل أكثر فأكثر، ممعناً في تيهه وسَفره المأساويّ. ولعلّ القصيمي، في تقديري، أخطر عقليّة عربيّة في العصر الحديث، عمقاً ومنطقاً وحُجّة، وأوّل ناقد ثقافيّ عربيّ، ظلّ ينبش في الجذور بصدق وعنف. لكنّ ما حدث أنه لم يُقرأ قراءة حوار وإنصاف، ولم يعطَ من أحدٍ مكانته التي يستحقّ، سواء اتفقنا معه أم اختلفنا. وإنما انقسم الناس حوله قسمين: قسماً كفّره واستراح منه، فلم يقرأه بنزاهة، بل جعل قراءته محرّمة، وكُتبه ممنوعة؛ وقسماً مقابلاً، احتفى به، لا ليقرأه هو الآخر ويثمّن خطابه، أو ينقد رؤاه، ولكنه فرح به ليقارع من خلاله القسم الأوّل، بوصفه الرجل الوهّابيَّ سابقاً الثائر على الوهابيّة لاحقاً. وهكذا يفعل أمثال هؤلاء بمن يجدون فيه (ورقة) يلعبون بها ضدّ خصومهم. وكذا غُلب الرجل من جهة، واختُزل من جهة، وضاع بين فكّي الرحَى من ثقافة قَبَليّة متناطحة. وأمثاله كُثر من أعلام الفكر قديماً وحديثاً. لأن السائد في تفاعلنا المعرفيّ أننا إمّا أن نمجّد فلاناً بإطلاق، فنسير وراءه معصوبي العيون، أو نلعنه ونرجمه بإطلاق، فيُصبح كلّ ما يقول من حقٍّ أو باطلٍ مصادَراً، لا يخضع للاختبار، ولا للأخذ والردّ. وليس هذا المرض في مستوى العامّة من الناس فقط، بل هو صناعة الخاصّة ممّن يُدعون بأهل العلم والفكر. إذ تبدو القضيّة هنا نتاج تربية اجتماعيّة عامّة، تشكِّل الذهن في طرائق استجاباتها ومواقفها وردود أفعالها. بل إن مَن أسميناهم بالخاصّة، ممّن يُدعون بأهل العلم والفكر، هم الذين يحوّلون ما استزرعته تربة التربية الاجتماعيّة العامّة كي يجعلوا نبتها أشجاراً راسخة باسقة مثمِرة، يصعب اقتلاعها، وبخاصّة حين تُسقَى بماء الدِّين، وإن كان الدِّين منها براء، وقد يكون بضدّها. وبذا يتحوّل المبدعون وأهل الرأي والفكر لدينا أحزاباً متلاعنة، لا يُصغي بعضها إلى بعض، فإمّا أن يوافق أحدها الآخَرَ الرأيَ والهوى، وإلاّ فكلّ ما يقول باطل، ولا فائدة فيه، بل هو عدوان سافر على الأمّة، وهو إفكٌ وضلالٌ مبين.

-٣-

وعَوْدٌ إلى مسألة اللغة، فإنك فيما خلا بعض الإضاءات الجديدة الشحيحة من بعض المستشرقين، أو الدارسين العرب المحدثين، واجدٌ اليومَ من يقرأ قصيدة للأفوه الأوديّ (-٥٧٠م)(١)، وكأنه قالها بالأمس على (شاطئ الراحة)! وهذا ما لا يحدث في تراث أيّ أمّة من الأمم سِوانا؛ إذ كلمة في «ماكبث»- مثلاً- أو في «عطيل»، أو «هاملت»، ربما تُدار عليها بحوثٌ كاملة، تستنهض تراثاً كاملاً وثقافة خاصّة، تساوقت مع استعمال تلك الكلمة، وتناغمت معها استعمالاتٌ أخرى لدى شكسبير، في زمانه ومكانه. فكيف بما قبل ذلك من العصور، وكيف بما يعود إلى العصور البائدة؟ لا، ليس لدينا- نحن العرب- هذا الحسّ التاريخيّ، ولا الحسّ الثقافيّ، فكلّ شيء جاهز، وكلّ قراءة ناجزة، ولا فرق بين أمسنا السحيق وآننا الأنيق. وهذا الجمود الذهنيّ الثقافيّ العربيّ الموروث لا يُعيق العقل في استقراء الماضي فحسب، ولكنه يُعيقه أيضاً في تطوير ذلك الماضي، واستشراف الحاضر، والآخر، والمستقبل.

وإن داءنا الدويّ في ذلك المخاض يكمن في فئتين ثقافيّتين، تقفان على طرفَي نقيض من التطرّف: فئة تنسك نسكاً ماضويّاً، لديها تقديسٌ لكلّ قديم، أيّاً كان ذلك القديم. وفئة نقيضة، تذهب إلى نكران الماضي، والتبرّؤ من الانتماء إليه، بكلّ ما في الانتماء من معنى. فالأولى لا تَقْبَل تجديد القديم، نهايك عن الخروج عليه، ولا تستسيغ إعادة قراءته، ومراودة فهمه وتأويله، على نحوٍ غير مألوفٍ ومؤلَّفٍ بأحبار الماضي نفسه. التراث لديها كامل. وهو لديها مصمتٌ، يُؤخذ كما هو أو يُترك كما هو. ومن ثم فإن إشكاليّة هذه الفئة لا تتمثّل في الثبات على الماضي فحسب، ولكن كذلك في ضرورة أخذ ذلك الماضي، وعدم إعادة التفكير فيه لفهمه فهماً جديداً. وموقفها السكونيّ ذاك لا يقتصر على التراث العلميّ أو شِبه العلميّ، أعني ذلك التراث المتعلّق بمعلومات أو وقائع أو وثائق تاريخيّة، وإنما يشمل كذلك النصوص الأدبيّة، وحتى الشعريّة. فالشعر لديها وثيقة يقينيّة، لا ريب فيها، تاريخيّة وجغرافيّة، وليس كما هو الشعر مذ كان، لغة خيال وتصوير ورمز، حمّالة أوجه ودلالات، لا يحدّها منطقُ عقلٍ ولا تحصرها مسلّمات واقع. منطلقةً تلك الرؤية الجامدة من مقولة قديمة فُهمت خطأً، وهي «أن شِعر العرب ديوانها، وعِلم أمّة لم تؤت علماً خيراً منه». وعلى ضوء تلك المقولة طفَق البلدانيّون والمؤرخون- وقبلهم اللغويّون- يفتّشون عن عِلم العرب في شعرهم، فصنعوا لنا تلك الأسفار من الأوهام المتراكمة، وما زال أحفادهم إلى اليوم على آثارهم من كل حدب ينسلون. ومن ثم فالشعر لدى تلك الفئة لَيس بشعر، بل لا يعدو أن يكون أخباراً ووقائع، (علماً بما تعنيه الكلمة من معنى)، كلّ ما في الأمر أنه علم حُلّي بالأوزان والقوافي، كما فعل الناظمون في العصور الإسلاميّة، من نحاة وفقهاء وأطباء وغيرهم. ومَن قال بغير هذا فقد اقترف إثماً عظيماً في حقّ التراث العربيّ؛ لأنه ينتهك بذلك حُرمتين، حرمة الجمود على الماضي من جهة، وحرمة التبعيّة التقليديّة لما قاله الماضي عن الماضي من جهة أخرى، وَفق آليّاته ومناهجه وسياقاته المتاحة. وبذا فمن راوده شيطانه- الشعريّ أو النقديّ- إلى اجتراح عدوان على تلك المسلّمات، فقد عرّض نفسه لما لا تُحمد عقباه؛ من حيث قد تجرّأ على زعزعة عقل آسن، استقرّ على ما ألفى عليه آباءه فاطمأنّ، ولا بُدّ آنئذٍ أن يتوقّع الباحثُ ردّات فعل رعناء عن ذلك العقل النمطيّ، المؤمن إيماناً مطبقاً بما ورث. والحقّ أن ليس هؤلاء وحدهم من ينظرون إلى الشعر تلك النظرة، لكن إلى جوارهم بعض النقّاد الأيديولوجيّين الثقافيّين، منذ أفلاطون إلى اليوم. أولئك الذين يأخذون في المقابل على الشعر المبالغة والكذب. وكلّ الفنون الأدبية والجمالية قائمة على المبالغة، والكذب الفنّيّ، والنمذجة، بمعنى الصنعة الخياليّة، وأخذ المتلقّي إلى عالم غير واقعي، عليه أن يتلقّاه وَفق طبيعته ووظيفته، لا وَفق ما ألِف في لغة الواقع والعِلم.

---

(١) هو: صلاءة بن عمرو بن مالك الأوديّ، من سعد العشيرة من مذحج. (انظر: ابن قتيبة، (١٩٦٦)، الشِّعْر والشعراء، تح. أحمد محمّد شاكر (القاهرة: دار المعارف)، ٦٥٩- ٦٦٠). وقد جمع بقايا شعره عبد العزيز الميمني في كتابه «الطرائف الأدبية». وهو من قدماء الشعراء في العصر الجاهلي، حتى غالى بعض الرواة فذكر أنه أدرك المسيح عليه السلام. (انظر: الأودي، الأفوه، (د.ت)، ديوان الأفوه الأودي (ضمن: الطرائف الأدبية، جمع: عبد العزيز الميمني)، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص١٠: ٨).

aalfaify@yahoo.com
http://khayma.com/faify

◆ الرياض

لإبداء الرأي حول هذا المقال، أرسل رسالة قصيرة SMS تبدأ برقم الكاتب«٥١٥١» ثم أرسلها إلى الكود ٨٢٢٤٤